مقاربات نظرية في مفهوم النخب الثقافية والسلطة بإيالة الجزائر العثمانية فترة الدايات 1671- 1830م

فاطمة الزهراء طوبال
دكتورالية / جامعة وهران 1

الملخص

تختلف وجهات النظر التي تحاول تفسير مفهوم النخب الثقافية والسلطة بإيالة الجزائر العثمانية ، حسب الأدوات التحليلية التي يتبناها الدارسون للموضوع، إذ إن التمثل التاريخي للنخبة الثقافية في عهد الدايات آنذاك لايمكن أن ينفي جرأة هذه الفئة على المطالبة بحقها في المشاركة السياسية فمسألة ربط " الثقافة بالسلطة " كانت مبدءا لممارسة السلطة على المجتمع و الحجج في ذلك كثيرة، فهناك توجهات واضحة من قبل بعض المؤرخين لتفسير أبعاد هذ ا المفهوم بوجهة نظر ترى تغلب العوامل ا لسياسية و الصراع على السلطة فوق كل اعتبار و هناك من يعطيها أبعادا إجتماعية – إقتصادية أو دينية. ومهما كان الأمر فإنه يبدو لنا جليا بأن فئة النخبة الثقافية آنذاك هي بمثابة المؤسس للعملية التاريخية المتواصلة و التي شكلت لنا مفهوم السلطة حديثا فهي نتاج مؤسساتي للدولة الحديثة. إذ تتمّثل إشكالية هذا البحث في دراسة مفهوم النخبة الثقافية على اعتبار أنها شهد تحولا وظيفيا وذلك تماشيا مع التحولات الاجتماعية و الاقتصادية للبلاد ونتساءل من هذا المنطلق عن نظرية النخبة الثقافية والسلطة وتكوينهما التاريخي؟.

Abstract

The views that try to explain the concept of cultural elites and the authority of the Ottoman Empire are different according to the analytical tools adopted by the scholars. The historical representation of the cultural elite in the era of the Dayiat can not deny the courage of this group to claim their right to political participation. There has been a clear tendency by some historians to interpret the dimensions of this concept with the view that political factors and the struggle for power prevail above all considerations and that some give them socio-economic or Religious .Whatever the case, it seems clear to us that the cultural elite at the time was the founder of the ongoing historical process, which constituted the concept of modern power, which is the institutional product of the modern state. The problem of this research is to study the concept of the cultural elite as a functional transformation in line with the social and economic transformations of the country.

الكلمات المفتاحية: السلطة العثمانية /النخبة الثقافية / عهد الدايات / الدراسات الجزائرية/ إيالة الجزائر

1 - فهوم النخبة الثقافية

يعتمد مصطلح النخبة الثقافية على العديد من المقاربات العلمية، إذ من الصعب جدا تحديد معايير ثابتة لتوصيف هذه الكلمة في الفترة المدروسة، سواء منها المعايير الموضوعية أم الشكلية، ذلك أن النخبة عبارة عن مصطلح حديث يعرف عدة تضاربات في تحديده لأنه من المفاهيم التي ترادفت عليها كلمات أخرى، وهذا راجع إلى ارتباطه بمصطلحات مجاورة مثل "الأنتلجنسيا"، "النخبة الحاكمة"، "النخبة السياسية"،"النخبة الثقافية"، وللإشارة لا توجد دراسات متخصصة تتبعت تحديد هذا المصطلح في مختلف مراحل استخداماته التاريخية خاصة في فترة الحكم العثماني بالجزائر حتى عام 1830م، ولكن عندما نضبطه في مساره التاريخي لابأس أن نحيله إلى مجموعة من المرادفات التي استخدمها المؤرخون بشكل كبير في تقاريرهم البحثية والذين تخصصوا في التأريخ لعهد الدايات بالجزائر 1671-1830م وهذا يدل على أن مفهوم النخبة يخضع للعديد من المقاربات التي سنشير إليها لاحقا.

أ - التعريف اللغوي:

النخبة هي فئة انتخبها الأفراد بصفة طبيعية رمزية لتمثيل رؤية قيمية في المجتمع [1]، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور، أن مصطلح النخبة "ما اختاره، منه. ونخبة القوم ونخبتهم : خيارهم [2] وقد ترددت في الكتابات الأجنبية بكلمة Elite إذ نفس المعنى الذي ورد عند ابن منظور نجده يتكرر في دراسة Vilfredo Pareto والذي يحصرها في الفئة التي ارتقت إلى مستوى التفاضل الإجتماعي، لأن النخبة بالنسبة للدارس هي فئة اجتماعية نقدية تتجاوز مجال تخصصها من أجل خدمة القضايا العامة [3]والنخبة هي الصفوة أو الطليعة التي تملك قوة التأثير في المجتمع، وبناءا على ماسبق فإن هذه الصفة التي تكررت في عدد كبير من المرجعيات العلمية تقود بالضرورة إلى تحديد تعريف لغوي دقيق للنخبة الثقافية والتي نشملها في السلطة الروحية فهي تشير إلى التفضيل والحضور الكبير في الوسط المجتمعي حيث تستمد شرعيتها من القيم الإنسانية و المواقف الأخلاقية السامية، وعليه يمكن الحصر أن النخبة هي طبقة مميزة ضمن تراتبية إجتماعية معينة.

ب -التعريف الإصطلاحي:

يشكل مفهوم النخبة الثقافية شقا هاما من المفاهيم المعاصرة في مجال التاريخ الحديث لعدة أسباب منها أنه يمثل توجه فكري معين في مجتمع الجزائر العثمانية من حيث الاستخدام، ف أثناء تعرجنا على عدد من الكلمات المرادفة لمفهوم النخبة الثقافية استنبطنا بأنها ترمز بطريقة أو بأخرى إلى تراتبية إجتماعية مميزة تختلف عن بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى و التي لايمكن تجاوزها أثناء الحديث عن الدور الذي لعبته في الفترة التي نحن بصدد دراستها، إذ نركز في ضبط تلك التراتبية على الفضاء الإجتماعي الذي عايشته كونه محل ممارسة الفعل الرئيسي لها، ومن هنا نستجلي تصورنا المنهجي للمفهوم في مقاربتة مع العوامل التي أدت إلى تحديده. ونعني بذلك أن النخبة هي فئة انتقادية تعمل على كسر الإستبداد و المظالم و الإستعباد وخلق تقارب استراتيجي بين المجتمع و السلطة السياسية من خلال بث الوعي الفكري وفق مايتناسب والقيم المجتمعية.

فتصوراتنا للمجتمع آنذاك كان مبني على الأحكام القيمية التقليدية من جذوره وبالتالي فقد مثل هذا البناء مجموعة من المفكرين والعلماء الرواد الذين أضفوا طابع المشروعية في عدد من الوقائع التاريخية.

فعندما نحصر مصطلح النخبة ضمن المعارف التاريخية، فإن إحالة المفهوم إلى المنظور التاريخي وتقييده داخل إطار زمني محدد، وفق التراكم المعرفي الذي أنتجته بعض الدراسات حول هذه الفترة يصبح معيار ثابت ظل مقتصرا على الفئة التقليدية أو الدينية كمقياس لإثبات دور الطبقات المؤثرة في المجتمع، دون أن يكون منفتحا على بقية الفئات التي تحمل نفس المعيار، وهذا يعود إلى اختلاف المرجعيات التي ينطلق منها كل دارس في فهمه لم صطلح الفقف، إذ تفرض علينا الآليات العلمية التي ينبني عليها تخصصنا، التحديد المنهجي لهذا المفهوم وفق الحقل المعرفي الذي نحن بصدد دراسته وذلك برصد استخدامات المفهوم من خلال الكتابات التاريخية.

- **من خلال المصادر التاريخية**

من خلال تتبع واستقراء عدد من الإنتاجات المستخدمة للمصطلح، بدءا بالمصادر التاريخية يمكن الإشارة إلى مجموعة من المرادفات التي استعملها المؤرخون والدارسون الذين تخصصوا في التأريخ لفترة الحكم العثماني بالجزائر ومن تلك المصطلحات المستعملة كلمة "أعيان" إذ استخدمها عبد الرحمن التوجيني في كتابه (عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس) [4] و استعملها محمد صالح العنتري بشكل كبير في كتابه فريدة منيسة[5] وبالمقابل جسدها حمدان خوجة في مصطلحي الأعيان و الأشراف [6]ويمثلهم نقيب الأشراف الذي يختار من أهل الورع و التقوى ومن الأسر الشريفة ليتولى الوظائف الدينية، أما أبوراس الناصري فرادفها بفئة العلماء في كتابه "فتح الإله"[7]ويحصرهم أحمد البوني في فئة الصلحاء في كتابه الدرة المصونة [8]، وفي نفس الإتجاه لمسنا هذا الحصر في رحلة الورتلاني [9] الذي ينعتهم بالفضلاء الصلحاء كما أن إنتاجات كل من أحمد بن سحنون الراشدي في كتابه الثّغر الجمّاني لابتسام الثّغر الوهراني [10]و مراسلات ابن العنابي [11] التي تناول فيها مسألة الولاية وعلاقة الحاكم بالمحكوم توحي أنه في البداية بني على الفئات الدينية نظرا لتشجيع السلطة العثمانية لتيار التصوف بالجزائر و مساهمتهم في بناء المؤسسات الدينية و على رأسها الكتاتيب و الأوقاف [12] واعتبرتها النخبة المسيطرة على الأوضاع بالجزائر العثمانية، و من الدراسات من ذهبت إلى حصر المصطلح على الفئات الثقافية من شعراء وأدباء وعلماء مقربين من السلطة وفي هذا السياق يلقبهم المزاري بالنبلاء، الأدباء الشجعان و الفضلاء[13] رغم أن هذه الأخيرة كانت أبعد بكثيرعن تشجيع الميدان الثقافي في تلك الفترة [14] فالمصطلح يمثل حسب هذا الإتجاه تصور واسع يضم مجموعة من الفئات التي تمارس نشاطات ذات طابع ثقافي، وسواء في النسق المغلق أو في النسق المفتوح، أمكننا أن نحدد اتجاهات دراسة النخبة الثقافية.

الاتجاه الأول يعتمد فئة العلماء الملازمين لبلاط الدايات كمعيار تَميُز يؤهلها لممارسة الحكم أو توجيه السلطة الحاكمة آنذاك.

الاتجاه الثاني اعتمد جميع الأعمال والممارسات الخاصة بالنشاط الفكري والفني والاجتماعي و الديني كمعيار لتصنيف النخب في الخانة الثقافية و يردها إلى الفئة التي لعبت دورا قياديا في تشكيل ثقافة المجتمع وسياسته، وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على الإنتاجات الفكرية و الأدبية لهذه الفئة.

وانطلاقا من هاذين الإتجاهين فإن تحديد مفهوم النخبة الثقافية يعتمد فيه بعدان اثنان، أولهما ديني، وثانيهما ثقافي فكري كمعيارين أساسيين في الإحاطة بالواقع الثقافي السلطوي بالجزائر العثمانية في عهد الدايات.

- **من خلال الدراسات الأكاديمية**

من خلال تتبعنا لمختلف استعمالات المصطلح في هذا المسار التاريخي يوضح أن النخبة هي فئة اجتماعية نقدية تتجاوز مجال تخصصها لتكون في خدمة القضايا العامة، فبداية كان استعمال المصطلح يتوافق مع الفئة التي يغلب على نشاطاتها الطابع الديني والذي طالما اعتبرته المصادر التاريخية المعيار الأساسي لتحديد قيم المجتمع الثقافية من أجل تثبيت مسألة الهوية في إطار السلطة الروحية بصفة خاصة، بيد أن الكتابات التاريخية الحديثة استخدمت هذا المصطلح بمرادفات جديدة مثل أبوالقاسم سعد الله الذي وظفها من خلال كلمة "كتلة المحافظين" وجمع فيها بين المثقفين التقليديين وزعماء الدين و العلماء [15] وقسمهم وفق التقسيم الثلاثي المتجسد في العلماء المتصوفة (المرابطون) و العلماء الموظفون (كتاب الإنشاء) و الفقهاء المستقلون إذ يمكن اعتبار مجهودات أبو القاسم سعد الله في دراسته لهذه المرجعيات مجهودا متميزا نثري به موضوعنا المدروس، حيث أنه يقدم لنا أنماطا مختلفة من النخب التي ساهمت بشكل أو بآخر في أداء وظائف طلائعية في النسق الثقافي في توجيه المجتمع.[16]

ويبدو جليا أن تمثل المفهوم في عدد من الكتابات الأكاديمية الحديثة صار مألوفا، فقد استخدم خالد بوهند كذلك في دراسته حول النخب الجزائرية كلمة " النخبة"، وخاصة النخبة الثقافية في أواخر العهد العثماني على أن ذلك يمثل النخبة التقليدية التي مثلها في رجال الدين و شيوخ القبائل و الأشراف و قسمها إلى فئتين[17] :

–بورجوازية مدنية وتشمل قضاة - مُفْتُون - أئمة - أصحاب الكلمة المسموعة والوجاهة.

–الأرستقراطية الريفية و تشمل المرابطون (شيوخ الزوايا).

هذا المفهوم الذي تجسد في كتابات العديد من المؤرخين عملوا على تمثيله في فئات اجتماعية معينة، تتوفر فيها عدة عناصر أهمها الرؤية الثاقبة للأمور قوة التأثير في المجتمع، في حين أن هناك فئات أخرى من النخب تقوم أهدافها على الوصول إلى السلطة منافية توجهاتها الفكرية للنخب الثقافية وتتمثل هذه خاصة في النخبة السياسية.

في الفترة المدروسة وما يتعلق بضبط المصطلح، فإنه يمكن تحديد معنى الكلمة التي طالما واجهت اختلافات في وضع تعريف لها، لأن الفكر الثقافي القائم في تلك الفترة حدد مجموعة من مواصفات المثقف التي تخدم توجهاته.

فالنخبة باعتبارها فئة منتخبة و رمزية قُيمت على أحكام وضعية و تفاعلات سلوكية تعارف عليها المجتمع بصفة طبيعية، بُنيت على معايير ثابتة تحددها و بالتالي تتحدد بها هوية من يتصف بها، فرصد المفهوم صار يعتبر من المباحث الكبرى التي اهتمت بها الدراسات الأكاديمية الجزائرية ولو بشكل غير مباشر، خاصة أثناء التأريخ لفترة الحكم العثماني بالجزائر، فمن البداهة بمكان أن نربط هذا المفهوم بحقل الأنثروبولوجيا الثقافية و الاجتماعية والتي تعتمد على دراسة بناء الثقافات الشعبية وأداءاتها الوظيفية، وترتبط بدراسة الطبقات الإجتماعية والسلوكيات الفردية كتاريخ العائلة والأنساب والأشراف والعادات والتقاليد ونشاطات البشر، حيث كتب يحي بوعزيز تأليفا سماه " أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة" رصد من خلاله نشاطات الأعلام الثقافية فحصر مفهوم النخبة في الطبقة المثقفة ونعتهم برجال الفكر[18] وفي نفس الإتجاه أنجز القاسمي عبد المنعم تأليفا بعنوان "أعلام التصوف في الجزائر" استنبطنا من خلاله أعلام العهد العثماني إذ تطرق فيه إلى مفهوم النخبة بأسلوب غير مباشر فنعتها

ب"الطبقة المتعلمة التي وقفت مع مصلحة الشعب ضد الحكام" [19]، وبالمقابل فقد رصد *ياسين بودريعة* مدى تأثر مجتمع مدينة الجزائر بالصلحاء فرادفها في دراسته بكلمة الأولياء[20].

وفي نفس المبحث أنجز صادق قادة دراسة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني مؤرخ بايات وهران القرن (19م)[21]، ورادف مصطلح النخبة بمصطلح الشخصيات اللامعة في رصده لنشاطات مسلم بن عبد القادر الوهراني الفكرية وأحصى في دراسته عدد المثقفين بمدينة وهران والذين عملوا على شرح أعماله الأدبية وقد اعتمد الدارس في رصده للمعطى التاريخي المدون في مقالته على وثائق محفوظات وهران.

إن هذه الدراسات جسدت مفهوم النخبة وفق الفعل الذي ميزها عن بقية الشرائح الإجتماعية الأخرى، فدرست نشاطاتها بآليات علمية و تحليلية تنتمي إلى المنهج النقدي حيث نظرت إليها كأعلى قمة في الهرم الإجتماعي، وبالتالي فإن توظيف هذه المرادفات في الدراسات التاريخية سمحت بظهور مواصفات قيمية وحديثة في ضبط مفهوم النخبة الثقافية.

لقد شدت انتباهنا الديناميكية الاجتماعية التي شهدتها مجتمعات الإيالة الجزائرية مع أواخر فترة الحكم العثماني و التي جسدتها مجموعة من حواضر المدن الثقافية[22] و الأسر العلمية[23]لتنقلنا إلى دائرة من استنباط علمي ينفي المنظور التاريخي الذي ذهب إليه أغلب الباحثين والذي مفاده أن هذه الفترة التي شهدتها الجزائر هي فترة انحطاط وتخلف[24].

ومن المسلم به أن تجلي النخب الثقافية بمجتمع الجزائر العثمانية في فترة حكم الدايات صار يشكل منظور عام وشامل لجدلية تاريخية واسعة[25] تدعو إلى تقديم نماذج واقعية وفرضيات نظرية لتصحيح النظر في مجموعة من المحطات التاريخية والتي خضعت لأحكام تقليدية ونقلية تداولها الباحثون في تمثلاتهم لمجتمع إيالة الجزائر آنذاك، إذ صار الموقف يتطلب منا القيام بتعديل جريء في المنظور التقليدي للباحثين من خلال ضبط و تحديد تصنيف نوعي لفئة النخب التي تجلت في هذه الفترة ، إذ حاولنا قدر الإمكان أن نضع اللبنة الأولى للتركيبة الإجتماعية لهذه الطبقة، التي اكتسبت السمة المميزة لكل الأحكام القيمية في إيالة الجزائر بشكل أعمق عما أقدم عليه جمهرة المؤرخين الذين حاولوا مقاربة الأصناف النخبوية في نسق مغلق معتمدين في ذلك على أبعاد ضيقة دينية،سياسية،اقتصادية، وذلك بتركيزهم على نشاط محدد، مستبعدين مجموعة من العوامل التي ساعدت على تكوين هذه الفئة.

السلطة و نظرية تكوينها التاريخي

أ - التحليل التاريخي لمفهوم السلطة :

نعلم بأن تنامي مفهوم السلطة يشكل ظاهرة تاريخية ينطلق تحليلنا له من خلال الحدث الذي يعود مرجعه إلى المجتمع و طبيعة تغيراته وفقا لمقتضيات واقعه التاريخي. إذ إن التحليل التاريخي للسلطة هو نظرة عامة تشمل الأحداث التي ميزت الحياة المعيشية للأهالي آنذاك. فالسلطة و المجتمع هما حقيقة تاريخية، تربطهما علاقة ظروف وواقع اجتماعي إذ إن البحث في هذه العلاقة مرتبط أساسا بهذا الواقع الذي يعطي لنا مفهوما علميا دقيقا باعتباره عملية تاريخية منتجة لعدة أفكار و نظريات سياسية لامناص من استبعادها.

ومن الضروري جدا اعتبار"ابن خلدون" هو أول مؤسس لفكرة العملية التاريخية و الذي أعطى للسلطة بعدا زمنيا مميزا في مقدمته [26] باعتبارها غاية انتقال من مرحلة إلى أخرى من أجل الوصول إلى المبتغى و هذا ماجسدته العصبية القبلية و التي مبتغاها الوصول إلى السلطة معتبرا بذلك بأن التاريخ تحدده الضرورة و هذه الضرورة تتجسد في حركة العمران البشري الذي بدونه لايمكن أن تكون فيه أحداث باعتبار أن الإنسان إجتماعي بطبعه ، وهذه الإجتماعية الإنسانية هي التي تكون لنا السلطة بمختلف أسسها و طبيعة أشكالها كما يحدد لنا علاقتها بالمجتمع و بالتالي فإن مجتمع الدولة هي علاقة معقدة تتشكل أساسا : من علاقة الأفراد ببعضهم وهذه العلاقة التي من الواضح أن تبنى عليها السلطة اعتمادا على فكرة السيطرة أو سيطرة الغالب على المغلوب الذي يخضع إلى حكم إلزامي يلزمه أن يكون تحت سيطرة جهاز أعلى من اجتماعه هذا و المتجسد عموما في جهاز الدولة ذلك أن الأفراد تتغلب عليهم نوازع الحس فالفرد كحيوان اجتماعي بطبعه لابد له من قوة قصوى تتصدى لفطرته الغريزية و التي يمكن أن تكون ظالمة أكثر منها عادلة.

وهذا مايظهر جليا من خلال التطاحنات العرقية و النزاعات القبلية أو الإيديولوجية بغرض التسلط و فرض الوجود،هذا الأمر الذي لولاه لما كانت العملية التاريخية المتجسدة في الحدث و لولاه لما كانت الدولة ولما كان المجتمع ، فالسلطة إذن تفرضها ضرورة المجتمع الإنسانية. وبالتالي فإن السلطة و الدولة متداخلان يكمل بعضهما الآخر،وهذا التكامل لابد له من انطلاقة و هذه الإنطلاقة تتمثل في "الفكرة" التي بمقتضاها نستطيع فهم خاصية الدولة و السلطة باعتبارهما مفهوما لايتم إلا بالطبيعة الإجتماعية المميزة للأفراد و التي تؤثر تأثيرا حاسما في القانون و تجعلنا نحاول إخضاعها لدراسة أنثروبولوجية تكون بمثابة المزج بين العادات و التقاليد و الأفكار ومدى تكافؤها لفهم هذه العملية التاريخية، إذ قام الفكر الخلدوني بتحليل قضية العصبية القبلية التي كان لها تأثير في الحكم ذلك أن العلاقة التي ربطت المجتمع بالسلطة آنذاك ترتكز على " فكرة العصبية " و التي امتد نفوذها شتى العالم الإسلامي فابن خلدون أسس فكره على المنطق الذي حلل وضع الدولة و المجتمع تحليلا موضوعيا بمجاليه السياسي و الإجتماعي.

ب -السلطة الزمنية

إن البحث عن مفهوم " السلطة " بالجزائر العثمانية في عهد الدايات و ربطه بالبعد "الزمني" يبقى قضية اجتماعية، باعتباره ظاهرة للتسلط السياسي داخل المجتمع الجزائري الحديث. فلا زالت إشكالية العلاقة بين المجتمع التقليدي و السلطة قائمة الطرح إلى الآن امتدادا لتاريخ الدولة العصبية في التاريخ الإسلامي الوسيط والذي حدد السمة المميزة لهذه العلاقة[27]، حيث صار المفهوم يتجسد في ربط الحاكم بالمحكوم و جسدها كذلك في الروابط التي جمعت بينهما لفرض العدالة الإجتماعية ومدى قدرة الأفراد على تنظيم شؤونهم الحياتية وفقا للمثالية المطلقة و بمقتضى الأخلاق و القانون، إذ أنه لمن المؤكد أن ربط الفكر السلطوي بسياسة الدولة في عهد الدايات كان أول خطاب طرح إشكالية الإنفصال عن الخلافة الإسلامية العثمانية، ليخلق في الأخير فترة إنتقالية بالجزائر العثمانية. ومع تطوير الدايات للنظم القانونية أثناء انفصالهم عن مركز الخلافة برز للسلطة بعدين أولهما الزمني الذي نتج عنه بروز الفكر الثوري وثانيهما روحي والمكمل للفكر النخبوي الثقافي.

و الواضح من المفهوم أن الفترة الإنتقالية تمخضت في محاولة وضع توازنا تاما بين نظام السلطة الروحية و الزمنية وفق مفهوم القوة المتمثلة في سلطة الدايات المسيطرة آنذاك إلا أن جل الكتابات المتخصصة في التاريخ

الحديث تربط هذه القوة بنظرتها السياسية حيث تؤسس لنظرية السلطة السياسية الزمنية وخضوع الأهالي للدولة وللقوانين السياسية و العلاقة التي تتنامى بين المجتمع العثماني التقليدي و الدولة و تستمد أساسا من السلطة الزمنية و لعل الفكر الإجتماعي في العهد الحديث كان فكرا سلطويا استنبط قوته من القوتين المالية و العسكرية فبوجود هذه القوة المادية تحققت قوة السيطرة السياسية وكذا وفقا للأحكام التي اعتمدها السلاطين العثمانيين آنذاك ألا وهي قوة القهر التي لم تسمح لأي جزائري باعتلاء مناصب عليا إلا لمن كان عثماني وهنا تظهر ظاهرة العصبية بالجنس. ومن هنا يمكن القول أن شأن هذه العلاقة هو شأن التغلب بوجود الثروة المادي لا الوازع الروحي .

وبذلك فإن تكوين السلطة الزمنية [28] إذن هو ظاهرة تاريخية استلزمها الأفراد في مجتمعهم بمقتضى فكرتين أساسيتين هما :

الفكرة الأولى : تكوين السلطة الزمنية تحددها الضرورة التاريخية بمختلف وقائعها الملموسة و المتجسدة في الإختلاف و النزاع الفكري إلى التقدم العلمي إلى نشر المعارف و محاولة تطويرها.

الفكرة الثانية : تكوين السلطة الزمنية تقتضيه ضرورة الحد من النزاعات العصبية والتي يجسدها الأفراد بالحسم فتكون لصالح الغالب الذي ترفعه القوة المناصرة له باعتبارها أساس الملك.

ج- السلطة الروحية

إن بداية تكوين السلطة العثمانية بالجزائر توقفت أساسا على فكرة " الخلافة الإسلامية " و التي كانت عاملا أساسيا في التأثير على المجتمع الجزائري آنذاك إذ اعتمد هذا البقاء بالجزائر لمدة طويلة على الغطاء الديني وربطه بالسياسة فكان طريقا إلى التغلب على الأهالي. فهذه الخاصية الدينية ظهرت كقوة محركة لتكوين ما أطلقوا عليه بالخلافة العثمانية بالجزائر و التي بنيت على أساس القوة الدينية.

إن مسألة السلطة الروحية التي اقتضاها الوجود العثماني بالجزائر عرفت بعدا آخر غير الذي تقتضيه الصورة الحقيقية للخلافة و التي تنظر لمصالح الدولة بمنظور شرعي ديني و بالتالي فإن مسألة الخلافة لدى السلاطين العثمانيين كان لها بعدا نظريا لا علميا و الأدلة حول ذلك كثيرة ولا يقتضي منا البحث عن الأسباب بذل جهد في ذلك، فقد اخترقت السلطة العثمانية حدود هذه الخلافة بالإتجاه نحو نوع آخر من السلطة ألا وهي سلطة الهيمنة والإستغلال أو مانسميه بالسلطة الزمنية والتي أشرنا إليها سابقا.

ويمكن اعتبار أن السياسة العثمانية ، قد تميزت بالجمع بين الملك الطبيعي و السياسي باعتبار الأول ملكا جائرا يخضع الأفراد لقوانين وضعت لتحقيق أغراض الحاكم الفطرية [29] أما الثاني فيتجسد في إلحاق الضرر بالرعايا جلبا لمصلحة الحاكم الدنيوية إذ تبدو المسألة واضحة بدقة و البراهين حول ذلك متوفرة، حيث كانت قضية السلطة العثمانية بالجزائر مرتبطة باستمرارية تغلب الجنس العثماني السلطوي على الجنس الجزائري فلا إنكار من أنها سلطة منحازة لسلطة الملك الطبيعي فهي و السلطة الدينية ضدان لايجتمعان. إن أهم خاصية تتميز بها الخلافة أنها نظام إسلامي يهتم بالجمع بين الحاكم و المحكوم برباط أخلاقي مميز مع اعتبار العدل بينهما مسألة بالغة الأهمية.

وهكذا فإن لسيادة العدل خاصية أخرى تجعلنا نفهم قيمة العلاقة المنظمة بين الطرفين أو عدة أطراف ذلك أن " الحق" الذي اتخذته الخلافة كسمة عليا مثلى لنظامها السياسي هو شكل من أشكال القوة التي تحد من الظلم و تقمعه و بالتالي تدعو إلى ضرورة إلتزام تطابق الأفكار و التزاوج فيما بينها ومن أجل حماية هذه الخاصية فقد أقر مبدأ الإعتماد على السلطة الدينية في تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمعات حيث شكل توجيه الفقهاء و العلماء الركن الأساسي لدى الحكام و الولاة في فترة الدايات في مرحلتها الأولى باعتبارهم النظرية الهامة التي كان يتم اللجوء إليها أثناء اتخاذ أي قرار.

إن مسألة الخلافة هي مسألة سلطة دينية و حكما سياسيا في آن واحد و مسألة الثبات على هذه السلطة لضمان استمراريتها و هذه المسألة تتعلق بشخصية الداي الذي من شأنه أن يكون فطنا لأمور الدولة الداخلية و الخارجية وفوق كل هذا متدينا، متقيا،على ملامحه صفات الإمامة و على مظهره قوة القائد الباطش بعدوه و في فكره قيوما متصلا بما يفكر فيه رعاياه و كيسا لامجال لمن هم في حدود سلطته من إخضاعه أو العبث بقراراته التي بمقتضاها تتحقق الدولة و تتحقق السلطة و بالتالي يضمن الثبات للخلافة باعتبارها غاية في حد ذاتها.

و الغاية التي تنبني عليها السلطة الدينية كنظام سياسي هي تحقيق وجود دولة عادلة ذات سماة أخلاقية عليا و البحث عن ظروف هذا التحقيق هو ضرورة حتمية للحد من جعلها دولة استبدادية بيد أن السلطة العثمانية كانت بدايتها سلطة مثالية جاءت لتنقذ المغرب من النفوذ الأجنبي ثم استقرت تحت لواء الإسلام فأسست لنظام أرستقراطي بمفهومه العام الإقطاعي الذي استبد بالرعية فانحل ليصبح نظاما فوضويا لما تحول النظام عن مجراه الأساسي و المتمثل في الخلافة لينتقل إلى نظام كما وصفه الفلاسفة القدماء بنظام ملك طبيعي و الحكمة لوكان التشبث بالخلافة كمبدأ أساسي لهذا النظام الذي آل إلى الهلاك،فلذلك كان الدين أساسا لكل ملك و أساسا لكل دولة أو سلطة.

فالنظام العثماني كان نظاما للترابط الإقطاعي [30] إذ يبدوا واضحا بأنه نظام يميل إلى خدمة مصالح الفئات العليا من المجتمعات و المتجسدة في التجار والملاك الكبار إذ كان الملاك هم الطبقة المؤثرة على حياة المجتمع ولم يكن لسلطتها حدودا ولم يكن من حق الفئة البسيطة التدخل في الشؤون السياسية أو الإقتصادية للدولة و لا أحقية لها في صنع القرار مادام القانون لايخدم إلا الفئات القوية ذات ركيزة مادية قوية [31] و بالتالي أصبح على الطبقة الكادحة أن تخضع لما يصاغ أمامها من قوانين ردعية مادام أن تحصيل معاشها يتم عن طريق خدمة أملاك الإقطاعيين.

ومادمنا بصدد تحديد مفهوم السلطة الروحية ومدى تطبيقها من طرف الدولة العثمانية في المجتمع الجزائري العثماني، ينبغي علينا مراعاة أهم الوقائع التي سعت إلى انحراف السلاطين عن تطبيق هذا النظام إذ لايمكن مقاربته لواقع اعتمد فيه أفراده على صراع دائم من أجل تحقيق منفعة ذاتية لا أخلاقية روحية و بالتالي فقد تحول مفهوم الخلافة عن شكله الحقيقي عبر وقائع تاريخية [32] كانت المنعرج الخطير لنمو فكرة التحرر وبروز الفكر الداعي إلى التخلص من قيود الجور و الظلام ولاشك أن رواد هذا الفكر التحرري قد نظروا لسحب شرعية نظام الخلافة الإسلامية من تحت لواء الدولة العثمانية قبل أن تبادر الدول الأروبية إلى التنافس نحو اقتسام امتيازات الرجل المريض.

ومع بداية الإنقسام و الإنحطاط الكلي للدولة العثمانية [33] بدأ ينمو مفهوم جديد للسلطة. حينئذ فإن وظيفة السلطة وعلاقتها بالمجتمع ظلت شغل شاغل الدارسين و الباحثين منذ ذلك الحين، فالتباين الحضاري الإنساني و الفارق الإجتماعي الطبقي ساهم في عملية تسهيل الهيمنة السياسية العثمانية على التعبير الديمقراطي الحر للأفراد. فسيطرة السلطة الدينية على الفكر الجزائري كانت القوة التي استهدفت الرضوخ التام للقرارات السياسية و الإقتصادية لتضحى العلاقة علاقة غالب لمغلوب ، خادم لمخدوم فهي إذن أضحت علاقة استغلالية لما صار التحكم بالعاطفة الدينية من أجل قضاء مصلحة سياسية. فيستحيل تماما اعتبار نظام الدولة العثمانية في عهد الدايات بالجزائر بأنه استمرارية لنظام الخلافة الإسلامية التي ميزت عهد الخلفاء الراشدين نظرا لعدم قوة السلاطين في تحقيق الفاعلية التامة في بناء القوة الحضارية بالإعتماد على الشكل الحقيقي للقوة السياسية المطلقة.

الهوامش:

1. سعيد بشار، في مفهوم النخبة ودور الوسيط أو المصادر الثقافي،مجلة فكر و نقد،العدد 27،مارس 2000، ص21-30
2. ابن منظور ، لسان العرب، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1955، ص751-752.
3. Vilfredo Pareto, The rise and fall of the elites, transaction publishers, New York,1991,p27-p36.
4. أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس ق 17م، دار الخليل القاسمي،الجزائر،2005، ط1.
5. صاحب الكتاب عاش بقسنطينة مرحلة نهاية الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي ويرجح البعض وفاته عام 1870م، شغل منصب كاتب في المكتب العربي بقسنطينة عام 1843م بعد أن اختاره رئيس المكتب الضابط بواسوني(Boissennet) ، لتولي هذا المنصب .وبتكليف من الضابط لكاتبه، أقدم محمد صالح العنتري على تأليف هذا الكتاب الذي يؤرخ لبايات قسنطينة بأسلوب تميز بالبساطة أنظر:ابن العنتري،محمد صالح،فريدة منيسة في حالة دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر و التوزيع،الجزائر،2009. ويذكر خالد بوهند شروحات عن الكلمة في دراسته الموسومة النخب الجزائرية . ينظر: خالد بوهند، النخب الجزائرية 1892-1942،أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث و المعاصر، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس، ،2012 . ص13.
6. حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تحقيق محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر،2005، ص123.
7. ابي راس الناصري، فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986.
8. أحمد بن القاسم البوني، الدرة المصونة في صلحاء وعلماء بونة، تحقيق سعد بوفلاقة، بونة للبحوث والدراسات، الجزائر،2007 .
9. الورثيلاني، سيدي حسين بن محمد، الرحلة الورثيلانية، المجلد الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006، ط1، ص792.
10. أحمد الراشدي، بن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر،1973.
11. ابو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي 1850، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ط2، ص49.
12. فارس مسدور و كمال صحراوي، الأوقاف الجزائرية: نظرة في الماضي و الحاضر، مجلة أوقاف، العدد 15، نوفمبر، الكويت، 2008، ص72
13. الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر وإسبانيا وفرنسا أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحيىبوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ط1، ص291-298.
14. عبد الكريم ابن الفكون، محدد السنان في نحور إخوان الدخان، مخطوط، مكتبة وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، الجزائر، الرقم707.
15. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930،ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1983، ص152-154.

16. أبوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي1518-1830،ج2، دار الغرب الإسلامي،بيروت،1998، ط1،ص18.
17. خالد بوهند، النخب الجزائرية 1892-1942،أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، الكلية: الآداب والعلوم الانسانية، جامعة: جيلالي ليابس- سيدي بلعباس، ،2012 .
18. يحي بوعزيز ، أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ط1، ص 41-47.
19. عبد المنعم حسني القاسمي ، أعلام التصوف في الجزائر، دار الخليل القاسمي للنشر و التوزيع، الجزائر، 2006، ط1، ص14.
20. ياسين بودريعة، المعتقدات في كرامات الأولياء بمدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 40، 2013، قسنطينة، ص367-383.
21. قادة صادق ، الذاكرة المكتوبة والتاريخ : أضواء جديدة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني أديب ومؤرخ بايات وهران (القرن 13هـ/19م)، مجلة إنسانيات، العدد 3،المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجية الإجتماعية و الثقافية، الجزائر، ص35-45.
22. Jean-Louis Marie Poiret, Voyage en Barbarie 1785-1786, volumes 2, édité chez J.B.F. Née de la Rochelle, Paris, 1989, p. 317
23. مثل أسرة بيت الطاهر المشرفي، أنظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس و الأثبات ومعجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات، ج1، ط2، بيروت، لبنان، 1982، ص466 و أسرة بيت ابن الفكون أنظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ط 2؛ حسين بوخلوة، عبد الكريم الفكون القسنطيني، رسالة الماجستير في تاريخ الحضارة الإسلامية،جامعة وهران،2009، ص106.
24. H-D. de Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque « 1515,1830 », Ed Ernest Leroux,1887, paris,p.226
25. إن منظور التركيبة النخبوية يقاس بتعريفات بعض المؤرخين الذين تم الإشارة إليهم في المدخل وتقسم حسب نشاطاتها العلمية كالعلماء والفقهاء و المرابطون وحسب نشاطاتها الوظيفية كالطبقة الرسمية والطبقة الملحقة بها – أنظر سعد لله، أبوالقاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1518-1830،ج2،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1998،ص18
26. ابن خلدون، المقدمة، تحقيق محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ،2005، ص152-156
27. الماوردي أبوالحسن، الأحكام السلطانية،ج1، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989، ص3.
28. خلوت حليمة، مفهوم السلطة السياسية في المجتمعات القديمة و الحديثة : دراسة تحليلية ، مجلة الناصرية، المجلد8، العدد1، جوان 2017، معسكر، ص369-389.
29. للتفاصيل ينظر: بالانديه جورج – الأنثروبولوجيا السياسية، 1989، بيروت ، بلا معلومات اخرى.
30. للتفاصيل ينظر:
Gursell Seyfettin – L'Empire Othomane face au capitalisme – Ed 1987 – Paris
31. للتفاصيل ينظر: حرب محمد، العثمانيون في التاريخ و الحضارة ، دار القلم، دمشق، 1989، ط1.
32. للتفاصيل ينظر: بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: منير البعلبكي ونبيلة امين فارس، دار العلم للملايين، بيروت ، 1965 ، ط4.

33. للتفاصيل ينظر:
Montran Robert – Que sais je ? Histoire de la Turque – 3éme Ed – 1968 – Paris.